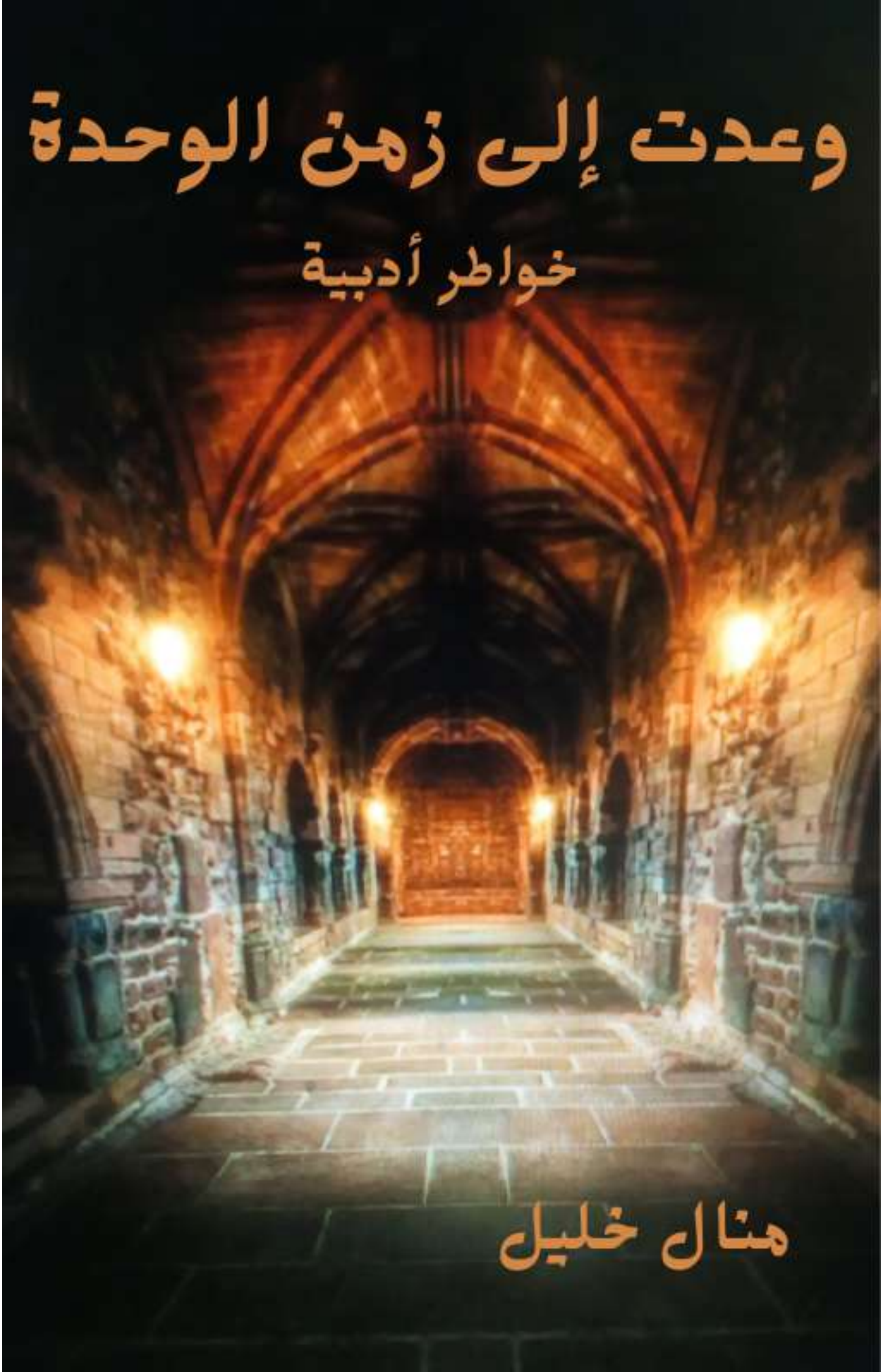
وعدت إلى زمن الوحدة
خواطر أدبية
منال خليل

خاطرة "وعدت إلى زمن الوحدة".. خواطر وجدانية

أعتذرُ إليك يا "ملا".. بل أتضرع طلبًا للغفران

كرمٌ أنت فاق المعقول.. كم أغدقتني بالحنان!

رأيتني أشكو الوحدة منزويًا، كالشيء المهمل..

منطويًا أبكي أشواقي، وبقايا أمل يتضاءل..

حنوت عليَّ وحضنتني، نظرتَ إليَّ بعين العطف..

أشجاك صوت أنيني، وأنساك الكم ومعنى الكيف..

فملت إليّ من دون عنوان.. سبحت فيَّ بحُرية.. ملأتني حتى الارتواء..

ففاضت أثوابي عليَّ.. تغنَّت نشوة أطياري.. تداخل ليلي بنهاري..

لعلّك أملت بوفاء بسكناك العمر دياري.. "ياما" ما أشقاك أشقاني..

أمسيت بجبّك مغرورًا أتباهى... بماذا؟ لا أدري!

كم كنت سفيهًا غرّا إذا تهت عليك يا أملي..

وصبرت ونصحتني..

ولكني اشتقت لسهدي والأوهام تمنيني..

بسكّيني قطعت وريدي فسكن الشدو..

وعمَّ الصمت وعدتُ إلى زمن الوحدة..

وخواء يسكنني كالموت..

كان هذا آخر ما كتبه وختم رسالته بقوله: (سلام إلى عينيك، سلام الأشرعة إلى المواني البعيدة).

فأنا الأمنية، وأنت الاستحالة يا إشراقة ضوء وإطلالة النهار.. سلام إلى عينيك، ثم وضع رسالتك في صندوق البريد بعد أن كتب عليها العنوان، وختمها بقبلة من فاهٍ مملوء بحرارة الفقد والشوق.. يتمنى النسيان.

كان يعلم أنها لربما تمر يومًا بجانب صندوق البريد، ربما تفتحه فتجد الرسالة، ومرت هي بجانب الصندوق، وفي أحد الأيام فتحته، فسقطت منه الرسالة، انحنت بعدم اكتراث ولا مبالاة، قرأت اسمه على الخطاب، فتنهدت بتململٍ وبيأسٍ لا متناهٍ، لكنها قررت في نهاية المطاف بعد صراع مع رغبة في داخلها أو رغبتان تتصارعان، إحداهما ترفض وتستنكر وتشجب وتتراجع وتكره، والأخرى تلح وتترجى وتطلب منها الإقدام والإقبال.

فحسمت هي الخلاف بينهما، وأخذت القرار بحسم وبحزم، قررت فتح الرسالة، وقرأت هذه الكلمات، إنه يعتذر منها أو يحاول استرضاءها..

حارت في خطابه بعد أن أنهت القراءة، لكنها كانت تعلم ما يريده تحديدًا، هي تفهمه جيدًا، ربما لأنها تملك شخصية حساسة ذات شفافية عالية، تستطيع من خلالها أن تدرك دواخل الأشياء، وتستشعر بواطن الأمور.

كان لديها نوع من الشفافية، وتكت بمرارة عجيبة، ونزلت قطرات دموعها لتغرق الخطاب، الذي تفتت من أمطار دموعها بين يديها أو كاد..

قد يقول قائل: "إنها تبكي متأثرة به، أو مشتاقة له، أو لأنها تصدق كلماته، أو أنها ربما تريده، أو تريد أن تكون بقربه". لكن لا شيء من هذا يدور بخلدها، ولم يكن هذا سبب بكائها، بل إنها كانت تبكي؛ لأنها تعلم أنه لا يريد أن يحرم من كلماتها وحنانها، إنها تعلم أنه يريد نفسه وكبرياءه وامتلاءه بالغرور، الذي اعتاده في كلماتها، إنه على كل حال يريد نفسه، لا يريدها، يريد أن يرى نفسه من خلالها.

كانت تعلم ذلك، وترضى به، وكأن كلاهما كان بحاجة إلى الآخر بشكل ما أو بآخر، لم يكن الاحتياج المعتاد الذي يحتاجه محب لحبيبه، أو رجل لامرأة، ربما كان هذا

هو أميز، وفي ذات الوقت أغرب ما في علاقتهما أو فيما كان بينهما، من شكل غريب الأطوار لعلاقة أغرب من الخيال.

ربما ملَّ كلاهما من الشكل التقليدي، ربما خاف كلاهما من الآخر، أو خاف أن يكره الآخر، ربما.. لكن على كل حال كان يناسبها جدًا هذا النوع من العلاقات..

إنها على كل حال لم يهمها، أو لم يعد يهمها أن يكون يحبها أم يحب ذاته من خلالها، لقد كرهت الشكل التقليدي للعلاقات، بل ملَّته، بل إنها رفضته..

إنه في نظرها لم يكن سوى نوع من الهلاك، الجحيم، العذاب، الملل، الكراهية.. إنه كل ما قيل وكل ما يمكن أن يقال عن أي شيء كريه سلبي.. إنه الموت، الفناء في نظرها، ولذلك مالت وركنت إلى كونه ظل بعيدًا عنها، وأعدَّت ذلك ميِّزة كبيرة وشكلًا مختلفًا لصلتها به..

أحبته بكل ما فيه، بعيوبه، وبظلاله الثقيلة، بسوء طباعه، بكل ما فيه.. وكذلك هو تغاضى عن كل شيء، وتجاهل كل شيء؛ لأنه رأى بها الشيء الذي يختلف عن كل شيء.. تعلَّق بكلماتها، بأسلوبها، وإحساسها بنفسه من خلالها، ومن خلال كلماتها كان يرى في كلماتها حاجزًا زجاجيًّا أو مرآة يرى بها نفسه.

ويرى العالم من خلال كلماتها، كانت كلماتها سلوة وعزاء له عن الكثير، وكذلك كانت ترى كلماتها له، انتظارها له، تعليقه، موقفه، رأيه، ربما رأت في ذلك سلوى لها عن حياة رتيبة خالية من كل تشويق ومن أي شغف، لكنها على كل حال حياة آمنة خالية من القيود الثقيلة والجحيم والعذاب، الذي طالما روجت هي تحته لعدة سنوات، فقبلت هي تلك الحياة، وأخبرتها بما فيها، ولكن أعياها فقدان الشغف..

أعيتها رتابة الحياة، قتلها الروتين، شعرتْ أن كل دقيقة في عمرها محبوسة داخل جدران حريتها.. فلم تعبأ بما ينتويه لها، ولم تهتم بما يفكر فيه نحوها، حتى أتى ذلك اليوم وانفجرت المرآة.. وتكسّر الزجاج في وجه كليهما.. فترك شرخًا كبيرًا، وابتعد كلاهما عن الآخر..

إنهما كانا بعيدين من الأساس على كل حال، لكن كانت علاقة بعيدة من وراء حجاب تصول وتجول، تروح وتجيء بين كلاهما، كالحرب الصامتة أو كالأخرس الذي لا يجيد الكلام.

إن ما بينهما كان غريب الأطوار، لكنه وعلى كل حال كان يسرّي عنهما بعض الشيء، كان يخفف قسوة الحياة، شيء ما كان عزاء لكلاهما..

عند الكثير أحيانًا يكون أجمل ما في الشيء أنه بعيد المنال، وأحيانًا أخرى أو في الأغلب نحن نُغرم بالتفاحة وهي فوق الشجرة، ثم ما نلبث أن نملّ منها، ونكرهها عندما تسقط في يدنا، بل ربما كنا نراها جميلة ونضرة ومتألقة ومغرية وهي بعيدة،

وما إن تسقط في اليد حتى نراها عن قرب عادية وذابلة وغير نضرة ولا شهية كما كنَّا نراها..

ما أجمل الأشياء وهي بعيدة! وما أروعها وهي تلمع لنا في الأعلى! ولا نكاد نراها من بعيد حتى يذهب سنا ضوؤها الذي نراه، أو هكذا نتصوَّر، ثم ما يلبث كل هذا أن يختفي بعد أن تقترب منا الأشياء.. ما أجمل الحلم وهو بعيد.. وهو خيال..

جمال وما أجمل الوهم حين يغرينا ببريقه وشفقه! وما أبشع حين يقترب منا كاشفًا عن أنياب الحقيقة المُرة! بارزة مخالبه التي يتشيها في قلب ذاك الحلم، وقلب ذاك الوهم البعيد الجميل..

كم كان جميلًا وهو بعيد! الأشياء أجمل من على بعد.. أجمل من فوق، لكن عندما نقترب تكون شيئًا آخر، هذا ما فكَّرتْ به هي، وهذا ما قامت عليه تلك العلاقة.

إن كلاهما لم يرد لنفسه أن يخسر الآخر، وكأن في قربهما الهلاك لما بينهما، فلا بد أن يكون هذا الشيء الغامض من بعيد.. هذا الرابط العجيب من فوق كالتفاحة فوق الشجرة، كان لا بد أن يحافظ كلاهما على هذا الشيء ليبقى ويعيش وينبض وهو بعيد.

كان لا بد لجنين الحب هذا، أن ينمو ويكبر ويستدفئ بالبعد، وبتلك العلاقة، حفاظًا على حياة هذا الجنين، الذي لن يكتب له اللقاء، ولن تكتب له الحياة إلا في ظل هذه الشروط وهذه الظروف وإلا.. وإلا مات.. قتل قبل أن يحيا، ومات قبل أن يعيش، وقبل أن يولد، وانتهى قبل أن يبدأ..

ربما أن أحدًا منهما قد خالف الشروط، أو حاول أن يقترب.. آهٍ لو أدركنا أننا لو حاولنا لمس النجوم لاحترقنا فورًا، لا بد أن كلاهما كان يعلم هذا جيدًا، لكن ما الخطأ الذي حصل؟ لكن، وبصرف النظر قد فكرتْ هي في الحل، إن كلاهما بحاجة إلى وجود الآخر في حياته، وبصرف النظر عن الأسباب والمسببات، وبصرف النظر عن أي شيء آخر، لا بد من مراعاة الشروط، والشرط الأول وأهم شرط هو الحرص على البعد.. الحرص على أن تكون العلاقة بينهما غير مباشرة.. أن كلًا منهما يخالط الآخر.. يعتذر للآخر.. يُحب الآخر.. يدلِّل الآخر.. يعطف على الآخر.. لكن من دون أن يكلم الآخر.. من دون أن يتواصل مع الآخر، بل من دون أن يباشر الآخر، أو حتى يعترف له، لكن كلاهما يعلم ما يفعل بسببه الآخر..

هذا هو أهم شرط ولا بد.. ولا بد من الالتزام به، إن موت ما بينهما حتمًا سيكون لو اخترق هذا الشرط، فلو أُخِلّ ونقض هذا الشرط سيكون كل منهما كمن قطع يده بسكِّينه، وبنفسه ذبح نفسه؛ لأنه خالف الشرط، ثم فكّرت وقرّرت ببعث خطاب، وتقذف به هي الأخرى في صندوق البريد، فلو رآه ومر صدفة بجانب الصندوق، فربما شعر بوجود الخطاب، فيفتح الصندوق، ويخرجه، ويفتحه، قالت له:

هيا بنا لنبدأ من جديد، ولن نلعب هذه اللعبة معًا.. وكانت تعلم أنه سيقول لها ما يقول، كانت تقرأ أفكاره، وتعلم ما يريد قوله، وكأنه أمامها، فكتبت له هذا الحوار:

هيا لنلعب معًا هذه اللعبة..

هو: عن أي لعبة تتحدثين؟

هي: اللعبة التي بيننا.

هو: وهل ما بيننا لعبة أم لهو؟

هي: فلنكن واقعيين.. نعم، وكلمة لعبة ليست عيبًا، وليس معناها أن فينا من هو لعوب أو غادر.. لا، بل معناه أنه يوجد احتياج لكلانا لدى الآخر، ومهما كان نوع الاحتياج هو ليس حبًّا، ولكنه احتياج، كل من يحتاج إلى الآخر لسبب ما.. لشيء ما، يحتاج إلى وجوده الآخر في حياته، لكن بشرط من بعيد، أقصد بشكل غير مباشر..

هو: ماذا تقصدين؟ وضِّحي

هي: بصراحة أنت تريد الكلمات، تريد كلماتي، تريد أسلوبي، تريد حناني، تريد شعوري وإحساسي، تريد أن تمتلئ مني، من كلماتي، من شعوري وإحساسي بك، الذي يغذّيك كان غذاء لك من الدَّاخل، وأنا أريد وجود شيء أجد به الشغف في حياتي، أجد ما يميزها وما يعطيها البريق، أجد فيه ما يبعدني عن الخواء الذي يسكنني، الذي هو أشبه بالموت، يبعدني عن وحشة مخيفة ومريبة تأكلني من الداخل، تنقذني من هذا الصقيع، الذي تتراكم ثلوجه فوق صدري، الذي مزقتني ثلوجه، ولكن بشرط! شرطي هو أن تظل بعيدًا بعيدًا.. فأنا أحب المستحيل، والمستحيل يلهب أشواقي، يلهب حاستي، ككاتبة وأديبة، يشعل ذاكرتي، ويشعل مشاعري ورغبتي في الكتابة.

أنا كاتبة أريد أن أكتب، ولن أكون سوى ذلك، فلا تحرص أنت على ذلك البعد؛ لأن في الكلام عن بعد، والحب عن بعد، والغناء عن بعد، والشعور عن بعد، وفي كل هذا البعد.. هو حياة ما بيننا، ولكن في القرب كل شيء يموت وسيموت لو اقتربنا..

هو: قال لها بغضب ودهشة، لماذا؟ أنا لا أفهمك! لماذا القرب يميت ما بيننا؟ لماذا لو اقتربنا يحترق كل ما بيننا ويموت وسينتهي إلى الأبد؟

هي: لأن في القرب الهلاك؛ فالأشياء جميلة وهي بعيدة، أنا مثلًا لا أراك ولا أشاهدك، أتدري لماذا؟ كي تظل في خيالي كما أنت، وتظل الذكرى كما هي، كي لا أكرهك، كي لا أصطدم بك..

أريد أن أراك من بعيد فقط دقائق معدودة، لا أطيل كي لا أسمع ما يضايقني.. تفهم ما أعني كي لا أخسرك، ابتعد عن مشاهدة أو سماع.. تفهم ما أريد قوله.. فلا يخاطب كلا منا الآخر دون أن يخاطبه، وليحكي كلا منا للآخر دون أن يكلِّمه، يرى كلا منا الآخر دون أن يراه مباشرة..

فليكن البعد هو صديق دربنا، ورفيق ما بيننا، في البعد الأشياء كلها تبدو جميلة.. فلربما أنا لو اقتربت منك كرهتني.. مللتني.. لو كنت معك أو أمامك لما شُغلت بي..

لربما رأيت فيَّ ما لا يعجبك أو سمعت مني ما لا يرضيك، صدقني في البعد الأشياء كلها لها بريق وشغف، لكن هذا البريق وهذا الشغف سرعان ما ينطفئ ويخبو نوره في القرب، وكذلك أنت.. من المؤكد لو كنت أمامي أو كان ما بيننا تواصل بأي شكل أو طريقة لكنت كرهتك، أو كنت أراك أو أسمع أو أحادثك.. لوجدت منك حتمًا ما لا يرضيني، ما يدفعني إلى كراهيتك والنفور منك..

صدقني القرب عدو لكلانا، والبعد صديقنا الوفي، عدني.. عدني الآن أن ما بيننا سيظل بعيدًا بعيدًا دائمًا؛ ليظل البريق بيننا هكذا من على بُعدٍ.. لا ينطفئ أبدًا أبدًا.. كي لا يموت ما بيننا، عدني أن تظل بعيدًا بعيدًا..

عدني أن تخاطبني من بعيد كما تفعل، تُحدثني من بعيد كما فعلت، تُكلمني، تنظر إليَّ، تتنهد، تبتسم، تضحك، تبكي، حياة كاملة لكن بشرط من على بُعد.. وعلى نحو غير مباشر..

أجابها أو هكذا توقعت: (أجابها وهو يمسح دمعتين هبطتا بهدوء من عينيه أعدك أعدك.. أعدك..

ثم طوت الخطاب، وذهبت إلى صندوق البريد، ووضعت الخطاب به وهي تتساءل: "هل يا تُرَى سيقرأ هذا الخطاب؟ هل سيدرك معناه أم لا! هل سيصله؟ فلنترك الأيام لتجيب عن هذا السؤال".

نوم

ساعات ساعات احب عمري وأعشق الحياة ،،ساعات ساعات أحس انني وحيدة والكلمة في لساني مش جديدة وان النجوم بعيدة وثقيله خطوة الزمن وثقيلة دقة الساعات ساعات ساعات . .. كان صدى كلمات الأغنية يرن في داخلي قبل مسامعي وصوت (صباح) يسطح نوره في اعماقي ليضئ ظلمة اليل الطويل الحالك السواد لذي غطّى سواده البهيم بعباءة حريرية مفعمة بعطر انثى جميلة

لكنها شرسة قاسية غادرة في احيانا كثيرة . غطت سحابة كثيفة من التثاؤب فمي ولم اشعر بعد ذلك إلاّ بها واقفة منتصبة امامي كالمارد العنيد الذي يأبى ان يتزحزح من مكانه اتت تتبختر في صلف وكبرياء تنظر الي وكأنها تتحداني وتتأملني تارة بشماتة وعناد وتارة أخرى برفق وحنان ثم فجأة اقتربت منّي هامسة وهي تهمس في اذني بفحيح كالأفعى وهي قائلة: لابد ان يتألم كل من كان عميق الشعور والوجدان مثلك.

انتفضت من مكاني بفزع انا اتلفت حولي متسائلة : من ؟ من انت ؟

--- انا هي انا هي هنا بفربك الا زمك كظلك لا ابرح مكاني بالقرب منك .لكني متلونة متغيرة متقلبة لا اثبت على حال .

شعرت في هذه اللحظة انني لم أعد أجد طريقة أعبّر بها عمّا أشعر به وتساءلت هل حقا لابد ان يتألم كل من كان واسع الشعور عميق الوجدان ؟ انني لم اجد طريقة اعبر بها عما شعرت به في هذه اللحظة من آلام وحشيّة وغريبة بداخل نفسي . الجميع كان دائما يتهمني بالقسوة والبرود مع اني ارى ان أغلب الناس هم الباردين لا اعرف كيف ارح ما بداخلي .

-- لكنني انا اعرف .؟ وأثق ان هناك بداخلك مشاعر تشعرين انك انت الوحيدة التي تشعرين بها في هذا العالم

تجسدت امامي فجأة آلاف الآلام والصور التي تؤذيني لو افصحت عنها والتي لايمكن لأحد ان يفهمها لأنها ستبدو له سخيفة لأنه لن يفهمها .

--- لكنني اعرف جيدا ماالذي يريحك وما الذي يفيدك . قالت بثقة : انا اعرفك وأفهمك تمام المعرفة وكمال الفهم العير ناقص ابدا .

--- من انت ؟ افصحي وماذا تريدين منّي ؟

--- انا ايامك ؟

بدهشه وتعجب : ايامي ؟ !!!عن اي ايام تتحدثين ؟

-- ايام حياتك الماضيةوالباقية والمستمرة الى الآن ؟ انني تركتك في هذه الحياة وانا ثروتك الوحيدة

بدهشة : تركتي ؟؟!!!! عن اي تركة تتحدثين واي ثروة هذه ؟

-- قالت بدلال : انا .. انا ثروتك الوحيدة وانا اهم وأول وآخر ما أورثتك اياة تلك الحياة .. انا التركة الوحيدة التي تركتها لك الحياة فلا تفرطي بي وحاقظي علي بل قدري وجودي في حياتك .

بإبتسامة باردة وباهنة اجبتها : عن اي وجود تتحدثين ؟ وهل انا اخترت هذا الوجود او حتى اخترت ان آتي اليه . وماذا سأفعل في هذا الوجود ؟ هل الإنسان منا يبدأ لينتهي ؟ يالها من لعبة سخيفة .ان اي كائن حي يولد لكي يموت ويبدأ لكي ينتهي .بل انه يكبر لكي يختفي ويذهب للعدم الذي أتى منه .. كل طفل أتى للحياة من دون اختياه ولذا هو يبكي يبكي وكأنه يستغيث يستغيث بالعدم الذي أتى منه لكي ينقذه من براثن تلك الحياة الكريهه التي تهب نسماتها الباردة الثقيلة المريبة فجأة كريح عاصفة تعصف بقليه في اول لقاء بينه وبينها ومنذ الوهلة الأولى ينقبض ويصرخ باكيا ححيث لسان حاله يتساءل قائلا لماذا ايقظتموني وأخذتموني من العدم الذي اتيت منه ؟ لماذا لقد كنت لا أكو من شئ ابدا ولم أذكر اني عانيت من اي إزعاج ..هل اتيتم بي وأقحتموني في هذه النكتة البلهاء السخيفة رغما عني لأبدا السير في خط النهاية حيث ابدأ متقدما خطوة خطوة حتى اصل الى خط النهاية .ابدأ لك انتهي اذا كنتم تريدونني ان ابدأ فلماذا انا انتهي ؟ واذا كان لكل بداية نهاية فما الحكمة وما الفائدة ان أبدأ لكي يكون هدفي منذ البداية هو الوصول الى خط النهاية ؟حيث العدم الذي أتيت منه !!! ما اعجبك ايتها ال]ام وما اعجب هذه الحياة التي تسيرين بها متقدمة نحو خط النهاية !!!! وكأنما لااغل لك سوى ان تأخذي كل منا عنوة وبدون ارادته ورغما عنه وتسحبيه من يده عنوة ليبدأ السير معك وبقربك في خط البداية حتى يصل الى خط النهاية .. انا انا لا افهمك حقا ماذا تريدين .. هلاذا كنت تريدين الوصول للهدف حيث النهاية فلماذا احضرتني اذن من العدم وبدون اختياري ؟؟!! هل اخذتيني من العدم لكي تعيدينني ايه مرة أخرى ؟!!!! هل انت بلهاء وحمقاء لهذه الدرجة ؟ ام سفيهه ؟؟ ام انك لاشاغل سوانا وكأنما انت تعانين من فراغ وجهل وحمق وبلاهه فتتصرفين كالأعمى الأحمق الذي تذروه الرياح يمينا وشمالا ؟فيصبح كامأفون غير مسؤل عن تصرفاته التي تتخبطه يمينا ويسارا فتقذفين بنا احيانا بضربة قاسية توصلنا مسبقا الى خط النهاية دفعة واحدة وفي احيانا اخرى او احايين كثيرة تسيرين بنا الهونة وبالترّج خطوة خطوة حتى تصلين بنا تدريجيا الى خط النهاية وانت تسخرين منا وتهزئين بنا حتوهميننا اننا نكبروننضج ..الآن عرفت من انت ومن تكونين انت كاذبة خادعة سفيهة مأفونة خالية الوفاض من ا ي شيء سوى العدم ،، العدم الذي تأخذيننا منه وتوقظين كل انسان او كائن حي منه عنوة وبدون رغبة او اختيار منه بدعوى انه يولد

لتستقبليه النت وهو يستغيث ويسترحمك ان تدعيه لأنه بينما انت عابثة مستهترة تطلقين يده للريح وتسيرين بقربه جتبا الى جنب كالمراة العوب او المخادع النصاب ترسمين له احلاما وهمية زائفة حتى لو حققها فهو في في النهاية سيلقى مصيره المحتوم حيث تصلين به الى حيث خط النهاية الى العدم من حيث اتى ويخرج خالي ذاهبا الى العدم من حيث اتي وكأن شبئا لم يكن هو لن يشعر بأي شئ ولن يكون اي شيء سوى العدم يخرج كما اتى صفر اليدين عاريا كما اتى عاريا وكل هذا بسببك انت ايتها المخادعة التي اتيت به لهذا العبث وهذا السخف اللانهائي لاشئ حياة معرضة للزوال في اي لحظة اما من مرض او موت او حادث وحتى لو سرت به الى خط النهاية تدريجيا بحجة انه يكبر او ينضج فهو في النهاية ذاهبا للعدم والفناء .

--- لكن البشر بالفعل ينضجون ويكبرون ويتعلمون الكثير في الحياة بفضلي انا اعلمهم .

--- بإبتسامة ياخرة ومرارة جاوبتها قائلة : تقصدين انهم يبرمجون تماما كجهاز التحكم عن بعد كل يبرمج حسب معتقد عائلته او بلاده او اسرته كل منهم يرث افكارا ومعتقدات وعادات وتقاليد يسير مع القطيع بداخلها وهو يعي في اوهامه المقدسة ظنا منه انه كبر ونضج وتعلّم بينما هو في الحقيقة تم تلويث عقله وبرمجته بعد ان كان يعمل بأريحية وتلقائية متعلة كعلة نشاط صادقة منطقية لاتعرف البرمجة والتحكم والسيطرة .

-- هل تنكرين ان هناك الكثير من البشر على وجه الخصوص في العالم المتحضر العالم الأول حققوا نجاحات عديدة وأفضالا كثيرة لولا جهودهم المبذولة من خلالي وسعيهم لما استفادة البرية ..صحيح انهم انتهوا الى العدم لكنهم تركوا وراءهم ماينفع غيرهم ..ومن تنهدت بحسرة وبإشمئزاز قائلة : انا بالطبع لا اقصد هؤلاء البر من العالم المتأخر او المتخلف او من يسمون بالعالم الثالث هم في الحقيقة عن مقارنتهم بالعالم الأول المتحضّر والمتقدم الذي يقود كوكب الحياة بأسرها فهم لن يكونوا اكثر من منتجات بشرة مستهلكة لانتجة لذلك هم اغبياء لم يفلح معهم تدريباتي ولم يستفيدوا مني واهدروني كلام وجعجعة وصفسطة وشعارات ومعتقدات روحانية تضر اكثر مما تنفع فكانت التنيدة انهم ليسوا فقط دول نامية بل دول (نائمة) يالهم من اغبياء

--- تنهدت وانا اقول لها : لا انكر ان كلامك سليم مائة بالمائة ولا املك سوى ان اقر به .لكننا في النهايةنعي في كوكب تعيس مهدّد بالإنقراض والفناء حيث كل المجهودات التي ذكرتها انت ستفنى وستذهب كأن لم تكن وسيحل غيرها ربما مجهودات اخرى وكائنات اخرى ربما غيرنا ربنا نحن سننقرض انه عبث في عبث فالأقدار تعبث بنا حثما شاءت وكل شئ يتغير ويتبدل الى شيئا آخر وكأنّ شيئا لم يكن .وماهو كان عظيما ورائعا في يوما ما يصبح فجأة حقيرا وضيئلا او ربما تافها بسيطا امام يئا آخر ..وما هو كان في وقت ما في هذه الحياة معقدا وصعبا المنال يصبح بعد ذلك ساذجا بسيطا سهلا امام يئا آخر حل محله .. هل هناك عبثا اكثر من ذلك .لائ ثابت لاحقيقة مطلقة كل ئء نسبي ولايصل الى القناعة الاّ من هو لم يتعمّق في شيء بعد ياله من ابشع صور العبث ثم بعد ذلك لاشئ ينتهي الأمر الى حيث الفناء والعدم انها النهاية البيلو جية الحتمية ورغم اني اثق انه ربما غالبا سيتوصل العلم بقدرته الى ماهو ابعد من هذه النهاية البيولوجية لكن ما اثق به تماما انه لاشئ ثابت او واضح في هذه الحياة التي ليس بها اي حياة .. وكل ئ مصيره الى التغيّر والزوال كون لانهائي او اكوان متعدّدة لانهائية المهم انه لاشئ ثابت او واضح ولامستقر فقط العبث العبث وحده هو سيد الموقف .. حتى ان البشر على وجه الخصوص قد يلاحظون ذلك او يتغلغل بداخلهم الحنين الى اللاّشئ ليت من لم يأتي الى هذا العالم يدرك مدى الهناء والسعادة التي تحيط به لذلك ترى البر على وجه الخصوص يجنون بل يتاقون للفناء للعدم الذي اتوا منه وكأنّما لسان حالهم يطالب بالذهاب الى هناك حيث العدم واللاّشئ فتجدهم بنامون يلجأون للذهاب في سبات عميق ولو اصاب احدا منهم الأرق فتحده يسارع بأخذ اقراص منومة او مروبات تساعده الى الذهاب حيث يكون حينها في اللاشئ مغمضا عينيه وكأنما يقول لنفسه اريد ان لا ارى شيئا اريد ان لا اكون هنا على ظهر هذه الحياة غتراه يغمض عينيه وكأنما لسان حاله انه ييح بوجهه عن هذه الحياة الكريهه يريد ان ينساها او يتناساها فيغمض عينيه راجيا بدخله وكأنه يستغيث بالعدم الذي اتي منه راجيا متذلللا له ان يعيده اليه مرة اخرى وان يأخذه الى حيث احضانه الدافئة بعيدا عن هذه الحياة المقفرة وعن هذا الجحيم وهذا العبث الغبي وكأنما هو عاتبا عليه متوسلا اليه انيرحمه بأن لايفتح مرة اخرى عينه على هذه الحياة فيظل مع العدم الذي كان به للأبد لكن مع الأسف تخذله احلامه وأمانيه وتهيب آماله ولياليه اذا يجد نفسه قد استيقظ فاتحا عينيه مرة اخرى على هذه الحياة ليمارس تلك اللعبة اليومية معك فتجذبيه اننت بلهفة وبقسوة من يدة وتجلسيه عنوة فوق سريره بعد ان كان ممددا مسترخيا يغوص في بحر امانيه واحلامه كي لايعود ويراك مرة اخرى لكنك وبكل صلافة ووقاحة تجبرينه على ان يفتح عينه وتوقظينه من سباته الذي كان يرجو ان يفيق منه أبدا وتبدئين في ممارسة لعبتك

اليومية اذا تقذفين به على خط النهاية ليكمل المسير به وانت بجانبه تنظرين له بشماته ضاحكة مستهترة وتتأملينه وهو يسير تدريجيا تتلاعب به الأقدار والأحداث من خلالك عبثا وهو يسير مرغما ويقترب خطوة خطوة من النهاية فتراه في كل يوم وكل ليله يمارس تلك اللعبة العبثية معك ايتها الأيام يمثل نفس الدور يكرره كل ساعة وكل ليله وبنفس السيناريو ونفس الأحداث والأشخاص تقريبا اللذين حتى لو تغيرت وجوههم يظل الجوهر والمعنى العبثي لكل منهم واحد ويظل مبؤك ثابت وهو عبث في عبث يظل سائرا يتجول في الحياة قليلا وانت تقذفين به من يوم الى يوم وسط عاصفة ولج بحر من الأحداث المتكررة ليمارس نفس المهام ويمثل نفس الدور ويظل يتجول ويتجول خلال كل يوم وكل ليلة منك حتى يحن الى العدم والى اللاّشئ ةتهفو نفسه الى حيث كان مصدوما تفاهتك معلنا يأسه وملله وغضبه منك فيلجأ مستغيثا ككل ليلة وكل يوم منك مغمضا كلنا عينيه مسدلا ستار جفونه على كل يوم عبثي من ايامك ولياليك ويبدأ دو لحنه الحزين مستغيثا بالعدم واللائ الذي اتى منه ان يرحمه قبل الوصول تدريجيا الى خط النهاية راجيا اياه ان يفهم ويدرك انه اتى عنوة الى هذه الحياة وانه بدأ لكي ينتهي فلماذا الإنتظار دون جدوى ولما ذا يضيّع الوقت انه لم يعد يتحمل تلك الوجوه البشرية اللعينه وتلك الأحقاد الخفية لم يعد يتحمل مخاوفه مما تخبيئنه انت له لم يتقبل هذا العبث الذي اجبر عليه منذ البدايه ولم ليختاره يوما ما لكن للأسف وفي الغالب تخيب آماله ويخذله رجاؤه وتذلّله فيجد نفسه مستيقظا مرة اخرى ويظل الا في بعض الأحيان التي قد يستجيب له القدر فيرحمه من هذا العبث .لكنه على الأغلب يجد نفسه وقد فتح عينه مرة اخرى على نفس المسرحية الهزلية ويجد الستار يرفع من جديد والممثلين يستعدون لتكرار نفس الدور التمثيلي مدفوعين بقوة لا اراديه تسوقهم كما القطعان الى السير مجددا على خط النهاية وتتكرر محاولاته في كل يوم وكل ليله محاولات مستمرة وهو يرجو العدم ان يعيده اليه من حيث اتى فلم لديه صبرا حتى الإنتظار للوصول للنهاية في آخر خط النهاية واذا كان الأمر كذلك فلماذا يبدأ من الأساس اذا كانت النهاية واللائ هي الهدف المرجو وقد نقطة التوقف اذن فليعجّل بالأمر وبيده لابيد عمر ويذهب من الآن حيث النهاية واللاّشيء لكن بدون جدوى تذهب محاولاته اليومية سدى في معظم الأحيان او الأحايين

--- لكنني ومع كل ماذكرته انا تركتك الوحيده ولن يتبقى لك سواي ولم تورثك الحياة سواي انا ..انا التي بالرغم من اني اقر امامك بأني اقترفت وأقترف كل ذنب وكل جرم ذكرتيه ولا ابرّئ نفسي ابدا ممّا اليّ نسبتيه لكني وبالرغم من كل هذا العبث المحيط بنا آتي اليك مرات ربما تكون قليلة او معدودة في الكم لكنها كبيرة ضخمة في الكيف فترينني في هذه المرات القليلة والمحدودة المعدودة ابدوا زاهية

مشرقة ساطعة كشعاع الشمس ناعمة انثوية شاعرية كضوء القمر مضمّخة بعطر لانهائي في سحره فأجعلك ترين هذه الحياة التي وصفتها بالعبث والتعاسة ومع اني أقرّ بما ذكرتيه لكنني بالغم من كل هذا وذاك آتي اليك في تلك الأوقات مهرولة وكلي سعادة وبهاء متزينه ومتبرجة بزينه باهيّة مرقة كنور الصباح البسّام ونديّة كعطر وردة او زهرة عطّرها ندى الصباح عطره فأرسم على وهك رغما عنك ابتسامة الرضا والسرور والحبور والأمل في غد اجمل انت لاتنكرين ما اقوله بكل تأكيد فانا عندما آتي اليك بوجهي المشرق الضاحك المسرور فأجعلك من خلالي تطوفين العالم وانت مكانك وتتسلقين الجبال وتقفزين فوق المروج والتلال وانت تمرحين وتعلبين وكأنك طفله في بداية مهد السنين ومن خلالي تسافرين حتى وانت مكانك تجوبين العالم كله من خلالاحساس عميق ووجدان مرهف الجس والوجدان امنحك ا نا إيّاه فلا احد يشعر بما تشعرين بها وقلة قليلة تلك هم اللذين هم مثلم فالكثيرين من حولك يعجزون عن الشعور والإحساس العميق بالسعادة الغامرة التي امنحك اياها ولا امنهحم هم ما اعطيه لك وبسخاء في تلك الأيام حتى لو كانت واهمة او خادة كما تقولين او قليله فالبرغم من كلئ وبالرغم من العدم لكنهم يسيرون معي خطوة خطوة وانا امسك بيدهم حتى خط النهاية لكن دون ان امنحهم ما منحته لك الا قلّة قليلة منهم بالطبع ..تلك الأقدار العبثية وهذا العبث الذي تحدثت عنه منحني لك بضع ايام وبعض اوقات تساوي العالم بأسره ولم تبخل الأقدار ولا عبثها عليك بيا انا وأورثتني لك لبعض الوقت اتي لأزورك وأحقق لك من خلال وجودي كل تتمنينه وسواء تحقق في الواقع او تحقق بعضه او لم يتحقق فيكفيك انني عندما آتي لزيارتك زيارات متكررة حتى في احلك الظروف زوأصعب الأوقا آتيك فأجعلك لاتشعرين بمرارتي في اوقات اخرى وأنسيك كل من هم حولك وكل ماحولك فتشعرين انك تملكين العالم وحتى لو كان هذا وهما او غير واقعي فأنت تصدقينه تعييشينه بكل جوارحك وتنسين اي امر آخر سواء تحقق ما اعدك به ام لم يتحقق المهم هو الشعور الإحساس السعادة التي حرم منها الآخرون وبخلت عليعم الأقدار وعبثها بها ومنحتك انت اياها حتى لو كان ذلك في عدد ووقت محدود مني فقد منحتني لك لبعض الوقت الذي هو يساوي كل الوقت فالآخرون مهما حققوا من نجاحات او مهما تعرضت انت لعذابات لم تحدث لهم لكن تذكري جيدا انهم لم ولن يعيوا معي ابدا تلك الأوقات السعيدة بل ليست لديهم القدرة ولا الكيفيةعلى الإستماع بها مثلك انت او بالأحرى لم تورثني الأقدار ولا يمنحهم العبث الذي تحدثت عنه أيّاي انا ملك لك انت فقط لأنني تركتك الوحيدة التي اورثتك ايّاها الأقدار واذن العبث لك بالإستمتاع بها حتى ولو لفترة محدودة لكن تذكري دائما انها متكررة ومهما يكن من أمر فأنا سأظل بقربك ارافقك دائما في صحوك او غفوتك لن اتخلى عنك اعدك بهذا .. ومادام الأمر كما ذكرتي يبدأ لكي

ينتهي ومادام العدم هو البداية وهو المرجع والمآل فلماذا تستمتعين لحظات واوقات حتى لو كانت زائلة ؟ واذا الأمر مصيره النهاية البيلو جية المحتومة التي لافرار منها اذن فالمكسب الوحيد وسط كل هذا العبث هو الشعور العميق بالسعادة ومعرفة كفية الإستمتاع بالوقت العبثي الذي سيذهب سدى كأن لم يكن ،، وفي هذه الحالة سيكون لإحساس بالأياء والتمكن من كيفية الإستمتاع بالوقت الذي يمر هو المكسب الحقيقي الوحيد في هذه الحياة العابثة العبثية ولا مكسب سواه فالأهم هو الشعور بالشئ وهو غالبا سيكون دافعا لحدوثه والسعي في سبيل تحقيقه في بعض الأمور الهامة والمصيرية .. لذلك انا تركتك ونا كنزك الحقيقي الأوحد وسط هذا الصخب العبثي العابث .

فجأة فتحت جفنين ثقيلين رفعتهما من على كاهلي كحمل ثقيل يأبى ان يزول او ينزل من فوق اكتافي ووجدت نور المس الساطع وقد امتلئت به غرفتي وحنها تساءلت هل اقوم لأمارس مهامي اليومية وانا اسير على خط النهاية خطوة خطوة ام اظل قابعة في سريري ربما يغمض النعاس جفني ويثقلهما فأعود من حيث اتيت ، لكن امسكت ايامي بيدي وبّثت بها بقوة ممزوجة بحنان ومضيت انا وتركتي الوحيدة وسط هذا العبث نسير بثقة فوق خط النهاية .

الجريمة الكاملة

ما أعمق تلك الذكريات !!! وما أشد تأثيرها على النفس والذات !! تلك الذكريات وتلك الخواطر التي تمر ببالي في احيانا او احيان كثيره هي كالسجن كالبيت يسكن بها ولها قلبي وحتى جسدي .يلوذ اليها روحي التي تفر من صخب العالم من حولي وصخب الحياة فأفر على الفور لاهثة لاجئة إليك أيتها الذكرى وأحتمي بك من برد عاصف قاصف وامطار ورعد اهلك روحي واتعب نفسي بل اصابها بالقرف والاشمئزاز فلا اجد اجد أمامي سبيلا سواك أيتها الذكرى البعيدة لأحتمي بك من صخب عقلي وضجر نفسي من تلك الحياة وبسرعة اجري لاهثة نحو مسكني عندما يدق ناقوس الذكرى عندها يحين موعد اللقاء لقائي انا مع تلك الأيام وتلك الأوقات فأدخل مسرعة ألوذ بك ايتها الذكريات يا تلك الأيام البعيدة ادخل الي مسكني في داخلك بقلبك فتفتح لي ذراعيك وبابك وتستقبلني في شوق تغرقها الدموع في بحر من الحنين وبسرعة ادخل محمية من العواصف في الخارج

ومن صقيع بارد كان يعتلي صدري ويزهق روحي واحساسي اجد لديك يا ذكرياتي وأيامي دائما الدفء فأجلس قرب نيران المدفأة مدفأة الأيام البعيدة و تدثر بعباءة الخيال ودموعي تنهمر حزنا وشوقا وانت تجلسين بقربي تحضنيني أيتها الذكرى بين احضانك الحانية التي هي احن علي من امي ومن اهلي اجمعين ..

وأغوص في لج بحر من الآهات العطرة المحملة بعبق الذكريات ونسيم كل ما مضى وفات ..وانا انادي على تلك الأيام الخوالي واتساءل اين اختفت ؟؟ولسان حالي يقول اين انت يا تلك الأيام ؟؟ولماذا ذهبت ورحلت بعيدا عني ؟؟،اظل انادي واصرخ لكن ما من مجيب سوى صوت ناقوس الذكرى يقرع في آذاني وترن اصداؤه في شعوري وبداخلي .ويظل السؤال عالقا ما بين الحاضر والماضي اين ايامي الخوالي؟ و لماذا رحلت عني أيامي البعيدة ؟وتخلت للأبد لم يعد يتبقى لي منها سوى حطام الذكريات .. لماذا ايتها الايام اصبحت خاوية على عروشها يقذف بك الشوق يمينا ويسارا كلما عصفت به ونادته عواصف الحنين ف يلبي النداء طائرا حتى يستقر في وجداني فأصرخ باكية من فرط الفقد والحنين .. وتنهال دموعي وتطل عندما تطل رائحة الذكريات العتيقة من شرفة الماضي البعيد بوجهها العذب الرقيق الوديع ومحاسنها وفتنتها التي غابت وتوارت عني في ماض سحيق سحقته الأيام والليالي وإذا به صخب الحياة الكريمة وايقاعها البارد الجاف في سنون عجاف قاحلة من أرض الذكرى التي أضحت أرض خراب بور لا ماء فيها ولا حياة ماء الذكريات وحياة ايام عذبة هنيئة صافية كالماء الزلال .
ويظل المطر يهطل بالخارج والصقيع يزداد وثلوج تلك الأيام
العجاف الباردة الوحشية المميتة يزداد و يعصف بقلبي واستغيث بك أيتها الذكرى وارتمي في حضني اكثر واكثر وأنا أصم آذاني عن الصوت بالخارج صوت تلك الأيام الحاضرة الخالية من أي لون والتي تفتقر الى عطرك الآخّاذ يا ايام صباي وطفولتي ايامي البعيدة والقريبة في ذات الوقت ، قريبة مني بعيدة عني انت يا أيامي الخوالي .خلا الدهر من كل جميل ما عاداك انت . يزداد هطول المطر بغزارة السيل فجأة وتزداد برودة وصقيع تلك الأيام الحاضرة العجاف اكثر واكثر ويملأ صوت الرعد ويقصف ويعصف بالمكان لكني اظل احتمي بمسكنك ايتها الأيام ويا أيتها الذكرى فضمني اكثر واكثر الى قلبك وتضغطين على بحنان بالغ وتدثّرينني بعباءتك الدافئة فتهب أنسام عطرها داخل كل خلية بداخلي
وتأخذيني عالمك الساحر الأخاذ عالم لا اصدق انه كان في يوما ما يسكن ويعيش على هذه الأرض المنكوبة . فتزهر الحياة بوجه آخر وجه افتقده منذ زمن وها هو الآن يعاودني وأنا بين أحضانك ايتها الذكريات .

ابتسمت لي ذكرياتي وبرزت دموعها من كهف ذاكرتي بإشراقة حزينه وهي تبادرني قائلة: لم انساك يوما ما كما تبحثين عني كنت ابحث عنك إن ما تبحث عنه يبحث عنك لكنه المجرم الحقيقي .

أي مجرم ؟عن من تتحدثين

--عن المجرم الذي ارتكب جريمته ولم يخلف وراءه أي دليل على جرمه وعلاوة على ذلك فنحن نبارك وحتى القانون يقف أمام جرائمه عاجزا عن الإتيان بأي شيء حياله او تجاهه قلت والحيرة تنهشني : من هو ؟وكيف ولماذا وماذا فعل ؟

--تنهدت ذكريات ايامي الخوالي تنهيدة وزفرت زفرة طويلة بعمر السنوات والأيام والليالي وهي تزيل اتربة الزمن المتراكمة وتنفث فيها وعنها ذاك الغبار المتراكم على الحياة تدب بها من جديد قائلة _: انه الزمن .هو المجرم الحقيقي وهو من فرّق بيني وبينك منذ فترات وعهود وترك بصماته واضحة جلية على الوجوه والأيدي ولون الشعر الأبيض وتلك الأخاديد التي حفرها على وجوهنا وقد جف منها ماء الحياة ونضب ومع ذلك تقيد جرائمه دائما ضد مجهول وحتى القانون لا يوجد عليها دليل واحد يدين به فيضطر لترك القضية فتكون ضد مجهول لا احد يدينه ابدا لأن الدليل ضده مفقود دائما و أبدا فهو قضية م ولن يتم حلها ابدا .

-- ولكن لا توجد جريمة مكتملة حتى النهاية انها خدعة وهم وكل مجرم يظن أنه اتخذ كل الاحتياطات اللاّزمة وأنه لم يترك خلفه مايدينه ابدا وللأبد هو مجرم ساذج واهم لأنه في كل الأحوال ومهما طال الأمد سيقع تحت طائلة القانون وتكشف جريمته ان عاجلا ام آجلا

--ابتسمت ايامي الخوالي ساخرة مني ومشفقة لحالي وهي تقول بمرارة : ومع أن هذا غير صحيح وغير واقعي فهناك جرائم عديدة لم يتم حلها ابدا لكن هذا المجرم تحديدا غامض كالزئبق بعيدا كل البعد كالسراب هذا الزمن هو مجرم من نوع خاص بل استثنائي ومن الصعب بل من المستحيل إدانته مهما ارتكب --من جرائم وهاهو قد فرّق مابيني وبينك وقتل كل الأيام الخوالي بدم بارد وقضى عليها بمرور السنين والوقت وعدد الليالي وسنوات الدهر وترك آثاره علامات واضحة وبصماته كانت كالوسم على جبين كلانا انا وانت ومع كل هذا وذاك لم يحاسبه احد لاقانون ولا اشخاص بل انهم يخضعون لأمره و يرضخون لآثاره على أجسادهم ويستسلمون لأمره بالفراق ومغادرة الأيام الخوالي والرحيل عنها مستسلمين خاضعين بدون أي مقاومة فكان لابد لي من الرحيل عنك فلا شيء يبقى على حاله ولا يدوم هناء ابدا امام هذا المجرم الطاغية وامام جبروت الزمن القاتل لكل مامضى بيننا من ايام وذكريات اجمل واقل مايقال عنها انها عذب وانقى من الماء الزلال واصفى من النقاء والصفاء وارق منطبع من طبع النسيم .

--

قلت هامسة أيامي الخوالي : اتذكر ايام طفولتي العذبة تذكرين كيف كنت أنا وكيف كنت انت ؟كيف كان تلك البيوت القديمة تضم كلانا انا وانت بين جدرانها المليئة بالحنان والدفء أتذكرين تلك الأيام الخوالي كيف كنا انا وانت نجري ونمرح ونتمشى بين الحقول والمزارع كنا نرى كل شئ بعين أخرى غير تلك العين ؟ عين لامثيل لها عين اختفت منذ ومن وبعدت وتباعدت عين بحث عنها فوجدت بريقها وشغفها قد انطفأ منذ عهد بعيد

--انه هو ذاك المجرم قد اصابها بالعمى وفقأ تك العين انه الزمن—قلت وانا اتنهد: آه بالفعل ياله من مجرم خطير شرير اتذكرين تلك البيوت الصغيره كيف كانت تضمنا بحنان الأم الرؤوم بين اضلعها و كنا نتهادى و تتبختر في لعبنا بينما تطل علينا تلك الشرفات والنوافذ العريضة والكبيرة بعين لامعهة براقة مبهجة مليئة بالأمل يطل منها شعاع الشمس ونورها فيبعث في كلانا امل يولد في كل لحظة .أتذكرين يا أيامي الخوالي تلك الأرض المنبسطة أمامنا والمركبة بلاط قديم متهالك لكنه كان يحمل بين طياته كل الحنين كل المعاني كالكلمات العام واعذبها --وارقها أتذكرين تلك الحقول وسطح المنزل و شرفاته وفناؤه الوسع يمرح فيه الدجاج والأرانب أتذكرين ؟ أتذكرين أبواب البيوت الخشبية وذاك النور الخافت الأصفر كضوء شمعة باهت يضئ فوقها كالشعلة من بعيد ياله من سحر أخاذ يعجز اللسان عن وصفه سحر بين جدران تلك المنازل عبق من نوع خاص وعطر لامثيل له على الأرض عبق الذكريات وصهيل الحكايات الآتية من بعيد والذي كان يتدفق ويسري بين عروقنا وهو يتمايل ويتراقص نشوة وفرحا كالموجات

--ولم انسى يوما ما وكيف ينسى كل منا ذاته وهل انسى ذاتي وكياني .

--قلت لها باسمة : لكن لك شقين اثنين أليس كذلك؟

--نعم أتذكر هذا بوضوح شق في فناء المدرسة وبين جدرانها القديمة ولعب التلميذات في الفناء واتذكر سلم المدرسة أتذكر حتى برامج التلفاز القديمة أتذكر الشوارع المتعرجة والحدائق الصغيرة

والشق الآخر

-- انه الأعمق والأقوى أنها تلك البيوت القديمة ومحطة القطار والسكة الحديد انها تلك الروائح روائح الزمن الجميل وعبق الزرع الأخضر وعطر الماضي ونسيمه ونسيم شجر الليمون وزهر أشجار البرتقال ونحن نلهو ونجلس في ساعة العصاري بين الحقول .

--كيف سمحنا لهذا الزمن المجرم بقتل كل هذا والقضاء عليه ووقفوا عاجزين أمامه ؟كيف لم نحبسه او نشنقه اعداما او رميا بالرصاص ؟لماذا سكتنا على جريمته الشنعاء في حقنا ؟ألا يستطيع أحد الصمود أمام جرائمه.؟

--كيف يتأتى لنا ذلك والدليل ضده دائما (دليل مفقود)

---اما من حل ؟ ألا نستطيع إصلاح الشرخ الذي أحدثه في جدار العمر والسنوات ؟ أما من علاج وترميم جدار الذكريات واعادة بناء ما هدمه هذا المجرم.

-- وهل يعود الزمن للوراء أنه يرفض العودة بشدة انه كالوهم كالسراب لا يعود ابدا انه كحلم نصحو منه فلا نجد أمامنا سوى الخيال والخيال فقط والذكرى التي تظل عالقة للأبد ..ذكريات عهد البراءة والنقاء ذكريات لا تعود ابدا .

وفجأة لمعت في عيني ذكرياتي وايامي الخوالي فكرة برقة لها عيناها و لمعت في ذهنها وتفتق عن رأي حكيم قائلة : لكني وجدت الحل و سأنتصر عليه

-- قلت لها والحماس يملأني حتى فاض مني كحافة كأس فاض ماؤها عليها فغرقت به هل ستجدين الدليل المفقود وتقضين على هذا المجرم الذي حال بيني وبينك مع الوقت ؟

--قالت بحماس : بل وجدت ما هو أهم من ذلك

-- ماهو ؟

-- أننا سنلتقي ودائما كلما حان وقت اللقاء دائما سنكون على موعد وهنا في كوخ الذكرى العطرة المحمل بعبق ما مضى من أيامنا الخوالي أنه باق دائما ولن يستطيع هذا المجرم العثور عليه ولاحتى هدمه

-- كيف ؟

لأن مواد صنعه وبنائه اقوى من جرائمه واقوى منه بكثير واثق انه سيقف عاجزا امامها

-- وماهي هذه المواد

-- انها مواد البناء التي يبنى منها كوخ الذكريات العطر مواد تهزم الزمن وتقهره فيقف عاجزا امامها انها (المشاعر النقية الوجدان العميق الشعور الشفاف وشفافية الحس وعمق الوجدان والخيال الخصب) انها اقوى منه وأنها تتحداه دائما في صمود وكبرياء فينصرف من أمامها مطأطئ الرأس خائب الأمل في تنفيذ جريمة الفراق في ما بيننا .

وكيف ومتى نبني هذا الكوخ لنضمن الصمود أمام الزمن .

--في أي وقت تذكريني فيه وقد المشاعر وتشتعل الشفافية بوجدان عميق وإخلاص أيامنا الخوالي ستجدين الكوخ يبنى في الحال من تلقاء نفسه وسيكون موعد اللقاء كلما هبت العواصف و اشتد البرق والرعد ادخلي للكوخ وستجدين في الحال في كل وقت وفي أي مكان لن اخذلك ابدا لن يخذلك مهما كان الثمن فلا تدخلي الي وقتما تتوفر مواد البناء وستجدين برفقة عالم يضج بعبق الذكريات الساحر الأخّاذ أنه أقوى من الحديد والفولاذ انه مصنوع من مادة أقوى من عمر الزمن . و فجأة صمتت العاصفة وسكت صوت الرعد جفت الأمطار كما تجف الدموع وصمتت طبل الرعد عن الدق وسطعت شمس حارة لاذعة حارقة فتلفّت حولي فلم اجد نفسي بين احضان ايامي الخوالي ووجدت الكوخ قد زال عني وانقشع كما ينكشف الغطاء عن جسد كان دافئا في ليلة ممطرة باردة عصفت بها الثلوج والرياح فقمت من فوري ناهضة وقفت اتلفّت امامي يمينا ويسارا وبالرغم من حرارة اشعة الشمس الحارقة إلاّ انني شعرت ببرودة تنخر عظامي كالسوس وتخترق جسدي بطعنات سكّيننها الحادة القاسية المسننة والتي لا ترحم اشعر بالصقيع يتدفق بداخلي لم يكن الثلج حولي ولكنه فاض بداخل روحي واحساسي وجسدي وعظامي فوضعت يدي اتحسس كلتا ذراعيّ علّني اجد قليلا من الدفء التولّد من حرارة الاحتكاك انني لم احب الشتاء يوما ما وكنت أخشى الوقوف أمام الثلاجة وانا طفلة وكنت اكره الشعور بالبرد .وهاهو الآن أصبح ينخر عظامي ويكاد يفتك بي وانا لا أدري كنهه او من اين ولا كيف أتاني بدون سبب ظاهر ؟ واذا بي اجد امام ناظري سيارات تغدو وتروح وشاحنات كبيرة تتحرك وتتلوى امامي كالثعابين الخارجة من جحورها والكباري العالية الشاهقة الارتفاع قد أعلنت عن وجودها بارتفاعها الشاهق الصارخ في تحد سافر وغطرسة فاقع لونها تحزن وتغضب وتوتّر الناظرين واناس تغدو وتروح وكأنها تلهث وراء شيئا ما لا تعلم ما هو ولا متى سينتهي ولا من أين جاء وبدأ هذا الشيء ولكنهم يلهثون فقط يلهثون وكأنّهم مأمورون بذلك أو كأنما هم أداة في يد اخرى تحركهم كالروبوت او جهاز التحكم الآلي أو المحرك اللاّسلكي الذي يحركهم ويحدد لهم ما يجب ان يقولون وماذا يفعلون او ماذا سيفعلون ومتى وكيف ؟؟وهم فقط ينفّذون الأوامر لا يسألون ولا هم مسموح لهم بمجرد اعتراض او حتّى استفسار وكل منهم يمسك آليات وأدوات صغيرة الكترونية لا ادري ان كان هو يحركها أم هي التي تحرّكه وتلعب به وباقداره كما يحلو لها كعاهرة لعوب تتلاعب بهم بكل صلافة وبلا مبالاة لتتسلّى كما يحلو لها فلا وقت لديهم لأي أمر آخر سوى أن يلوثوا فقط هم يلهثون بدون أدنى اعتراض ومن تنقطع من الأنفاس يخر ملقا على الأرض حتى ينتهي به المطاف للفناء والعدم .. عندها ازداد خوفي و ملأتني الحيرة والقلق وغصت لج بحر من الصقيع والثلوج التي غطت كل كياني من الداخل ولم يعد استجداء الحرارة والدفء من حركة يداي في توسلاتها لذراعي ينفعني ثم تذكرت موعد اللقاء أنه عند هبوب العاصفة وصوت الرعد ووميض البرق الخاطف وعندها وفي أي اتجاه من الاتجاهات الأربع وعندما

تشتعل نيران الوجدان العميق وتضيئ مصابيح الشفافية الساطعة والإحساس الصافي النقي والشعور العميق عندما تدق دقّات الساعة معلنة عودة الزمن للوراء انها مواد البناء التي تسقط سطوة الزمن أمامها وينهار جبروته ويقف امامها عاجزا عندها وعندما انظر في أي اتجاه يمينا او يسارا او شمالا او جنوبا او فوق او تحت يبنى كوخ الذكرى من تلقاء نفسه وتهب العواصف وتهطل سيول الأمطار وعندما يضئ وميض البرق الخاطف وفي الليلة القمراء المكان سأدخل من فوري للكوخ
وتحتضنني ايامي الخوالي وذكرياتي نعم هكذا قالت لي انها لم ولن تخذلني ابدا .
فسرت امضي في طريقي وانا اعد مواد البناء في انتظار موعد اللقاء .

ماذا لو؟؟؟؟؟؟؟؟ (مقال أدبي)

ماذا لو كان ثمن السعادة هو أن تكون غبيا جاهلا !

ماذا لو أن ثمن سعادتك هو أن تكون حقيرا غير عادلا !

ماذا لو أن الثمن أن تكون بلا عقل،،وبلا مشاعر ..حتى يتسنّى لك أن تكون سعيدا ..وتكون عن الشقاء بعيدا ،،بعيدا ... ماذا لو كان الثمن لذلك هو أن تبني بيتا على حساب أنقاض بيوتا أخرى ..أو أنك تغرس زرعا في أرض ليست لك ! ماذا لو طالبتك الأيام والشهور وحاسبتك السنين أن تنسى أو تتناسى كل ماينغص عليك عيشك ويقض مضجعك فقط لتكون سعيدا ..! ماذا لو أن الثمن لراحة بالك أن تجعل عقلك في نعالك ! ماذا لو كان عدم السؤال هو أفضل إجابة !!! أو الإجابة تمر فوق رأسك كغيامة أو سحابة ثم تنصرف بلاعودة وكأنما هي خطأ ما أو نزوة عابرة أو هفوة ثائرة .. لا تلبث أن تعود لطبيعتها ...والتي هي (اللاّشئ)،، ماذا لو كان اللاّشئ هو كل شئ !؟ ماذا لو أصبحت صفرا خالي الوفاض من كل شئ ،،عدا شئ واحد هو اللاّشئ ! ماذا لو أن السبيل الوحيد لهنائك هو أن تقبل بشقائك ! بل انك لابد وأن تتغزل به مبتهلا في محرابه مترنّم في جلاله وحسن بهائه ...! لكن على الجانب الأخر هناك سؤال آخر .. ستجده دائما رابض كالأسد الجائع متلهف لافتراس عقلك وإحساسك مهما تجاهلته وكأنك لاتعرفه! ماذا لو أخرى ؟ ماذا لو أن ثمن المعرفة والوعي هو

النقمة على كل شئ وأى شئ .! بل ل ربما خسارتك لأغلى شئ ،، أتعرف ما هو ؟ إنه راحة البال.. انها الأمر المحال

..ماذا لو أن المقابل لذلك هو أن تشعر ببريق الأيام ينطفئ من حولك
..وأن الثمن الوحيد الأوحد هو (الغياب ،الوحشة ،، الفقد ،والإفتقاد
..) الفقد لكل من حولك وما هو حولك ،، غياب البريق من
كل ماتعيشه وتتعايش معه ..وكأن الدقائق والساعات والثواني جميعها تدق مع
كل لحظة وفي كل وقت معلنة ناقوس الإنطفاء ..الاندثار،، الإختفاء ،،
إختفاء المتعة ..النشوة ،،اللذة .. (جميعهم خرجوا ولم يعودوا ،، وربما
لن يعودوا) إنه إختفاء باختفاء وانطفاء بانطفاء ..ثم تليه وحشة موحشة في
صحراء حياتك قد تلازمك حتّى مماتك ..فقد موجع مؤلم كأم ثكلى فقدت ابنا او
بنتا لها ،،وكأنك محاصر بكل هذا وذاك في صحوك ونومك
..انك دائما تفقد شيئا ما ؟ هدوئك الداخلي ربّما ،، وكأن معول
حياتك يهدم ذاتك يوما بعد يوم ..ولكن تذكر دائما ان لكل شئ مقابل ولكل
خسارة مكسب ولكل مكسب خسارة تقابله ،،ولكي تصبح أنت على هذه الشاكلة
وعلى هذا النحو أخذت المقابل ،، الآن وقد أصبحت تعرف كل شئ او قل أكثر
من نصف الشئ ،، والآن أصبحت أقرب ما يكون لجزء
مهم من الحقيقة المطلقة وليس جميعها بالطبع ..الآن أراك تتبصّر الأمور
بعمق وتبعد عن أي نظرة تضج وتئن من الحمقى والحمق
،،أرى أنك الآن تفسر وتحلل أوضح وأعمق ..وتضع النقاط على الحروف
،،الآن أنت كالطير الحر ..وقد بذلت كل مافي وسعك
لتصبح كذلك..ولم تبالي في سبيل الحصول على ذلك بأي خسارة أخرى ، هذا
إن كنا سنسميها خسارة ..الآن أراك وقد أصبحت على علم ويقين
والعقل لك هو علم مرفوعة هامته فوق الجبين ..وقد ضحيّت في سبيل ذلك
حتّى لم يعد لديك مايبتزّه الألم ،، فحسبك من الموحشات الهم والهرم
،،وأصبحت جراحاتك تضج دم ..والحزن والصمت الموحشان هما أفضل ما
يطوى عليه فم ،،حتى أصبح أكبر همك وأعظم مالك أن تقل جرعة الألم ..
وان يكتفي الألم من أن يقتات على ذاتك ،، ويمضي فوق رفاتك
،،الآن وقد أصبحت أكبر آمالك أن تصغر الآمك ،،!

والآن دعني أقدم لك بعض النصائح اذا أردت أن تكون سعيدا :

اولا : لكي تكون سعيدا عليك أن تكون غبيا جاهلا ..

ثانيا : لكي تكون مؤمنا صادقا حقّا بدون دليل او يقين عليك أن تضع
عقلك تحت الحذاء ..وإلا سيكون عقلك هو الدّاء والتّخلّص منه هو الدواء .

ثالثا : لكي تكون سعيدا محبوبا مقبولا .. إكذب ..نافق ،، سايرهم .. سايرهم دائما و سر في ركبهم .،لتغوص في أحضانهم ،، ستعيش هانئا في رحابهم ..وستكون في نظرهم أعقل العقلاء
وسيرفعونك فوق قدرك وكأنك أنبل النبلاء .

رابعا : لكي تكون سعيدا عليك أن تتخلص من هذا العقل اللعين وان تنتمي إنتماء حقيّا لجنسك البشري الملعون ..

خامسا : كي تكون سعيدا عليك أن لاتحاول فهم الأمر على حقيقته الكاملة ! عليك أن تقتل المنطق بداخلك وتفتك به قتل مع سبق الإصرار والتّرصّد .. عليك ايضا ان تقتل عقلك بالسم ..! اجعله
ينتحر ..ينتحر بشكل متكرر كلما حاول أن يستيقظ . هذا إذا أردت أن تحافظ على سعادتك وراحة بالك وهناء عقلك .. إجعله مدلّلا لا تجهده أبدا .. حضر له كل الإجابات الجاهزة المغلفة والمعلبة التي توفر عليه الجهد والمجهود .. وإقنع نفسك بمصداقيتها ..ولا
تنسى تلك هي المتعة والرفاهية لك ولعقلك المدلّل .

سادسا : عليك أن تتفهّم الأمور بشكل خاطئ!!! ..نعم .لما تتعجّب! اذا عرفت ان للخطأ سحر وجاذبية فريدة من نوعها فلن تستغرب الأمر بعد الآن ..وبخاصة عندما تقنع نفسك أن الحق كل الحق هو في فهمك الخاطئ.. والذي تحسبه أنت ليس بخاطئ !!! يالها من جاذبية عجيبة !أحيانا كثيرة يكون التضليل والضلال مريح للنفس وللعقل ،،مسكّنا للألم .

سابعا :إبتعد عن عقلية النسور .. واتبع دائما عقلية القطيع .. نعم القطيع .. استدفأ بحضن القطيع ،،فالصقيع والزمهرير الذي يقطر
بردا وثلجا من جناحي النسر ليصنع فراشا يفترش فضاء حريته ورحابة منطقه لن يمنحك دفء القطيع ...لا تنسى ان دفء القطيع الذ وأهنأ ! وما الضرر في كونك لا تفهم ولا تعمل عقلك أبدا ! ماذا يضرك في ذلك ؟!! اليست راحة العقل والبال والسير مع الجماعة أفضل
بمراحل ،،ومن أجل راحة عقلك ودلاله ..لا تنسى ذلك أبدا .. لاتتعب نفسك أبدا .. أبدا لاتتعب نفسك ،،ثم ما المشكلة في أن
تبقى مع القطيع ،قطيع البهائم النائم .

وأخيرا وليس آخرا : دع عنك تلك الآلام الرفيعة الساذجة الحمقاء .. وأجري دائما خلف كل سعادة حتى لو كانت مبتذلة ورقيعة ! ف
تلك الآلام الرفيعة ليس وراءها للعقل راحة ولا للهناء بقاء،،

والآن ..أترى ماذا ربحت ؟ ربح مهم !!! .. أليس كذلك!!! ..

دع عنك عقلية ذلك النسر اللعين ..واتبع دفء القطيع المتمكّن الحصين!!!
إنظر إليّ جيدا ..وثبت عينك بعيني ..ثم .. ثم ماذا
؟ أريدك أن تقارن بين كلا الأمرين ،وتسأل نفسك : ما قيمة
ماربحته أمام قيمة ما خسرته ؟ قيمة تواجه قيمة أخرى .. ومعنى يواجه معنى
آخر ..، هل الحقيقة والمعرفة والمنطق ؟وهل الإطلاع على بواطن الأمور وسبر
أغوار المجهول .،،يستحق كل هذا العناء والتعب كمقابل لكل ذلك ؟ هل ماربحته
يوازي ويساوي قيمة ما خسرته ؟

ربما تكون هذه هي أصعب معادلة في التاريخ ،، قيمة الربح في
مقابل قيمة الخسارة ،،ايهما يستحق المعاناة والعناء ؟ أيهما يستحق
المغادرة أيهما يستحق البقاء ؟

ترى أيهما خسرت ؟ وأيهما ربحت بالفعل؟ أيهما يستحق المجازفة والمخاطرة ؟
أيهما ؟ الرابح والخاسر .. من هما في الحقيقة ؟ من الرابح بحق
؟ومن الخاسر بحق ؟ أعلم أن المسألة نسبية ؟ وهذا ما يزيد الأمر تعقيدا ،
من سبق من ؟ لمن الأفضلية ؟ ولمن الأسبقية ؟ البيضة أول أم الدجاجة ؟
ويظل السؤال ذاته معلقا فارضا نفسه بالسؤال ذاته ؟ من الرّابح إن كان
ربح بالفعل ،،و ربح ماذا ولماذا ؟ ومن الخاسر؟ إن كان خسر بالفعل خسر
ماذا ولماذا ؟ إن ما ربحه الرابح هو ذاته قمة الخسارة للخاسر .وما
خسره الخاسر هو بذاته قمة الربح للرّابح !!!! كل حسب ظنّه ..وكل على حد
زعمه ،،بشاعة الخسارة أمام قيمة وروعة الربح ،،

خسارة وربح بل ربح وخسارة .. أيهما .. أيهما .. أيهما يهمني ربحه ولا تعني
لي خسارته؟ وأيهما أيهما أكثر إيلاما لفقده وأيّهما أكثر أهمية وعظمة
لإيجاده وتحقّقه؟ أيهما أكسب وأربح ؟ وأيهما أخسر ؟

أيهما سيميتني فقده وإفتقاده ،؟ وأيهما سيحييني وجوده وإيجاده ؟ .

العقل والتعاسة معا جمبا الى جمب ،، أم الجهل بالأمور وبواطنها
والسعادة معا جمبا الى جمب ؟،، لكن إعلم عزيزي القارئ أن
الثمن دائما باهض أمام عظمة وقيمة المكسب ..وبقدر ما تكون فداحة
وهول الخسارة ،ولن يقدر على بذل هذا الثمن إلاّ من كان يملك الكثير
والكثير جدا ،،الغني والغني جدا ،إنه الغني بمالديه مما يدركه وليس بما يملكه
!هؤلاء هم العظماء .. العظماء فقط ..وحدهم فقط هم القادرين على ذلك ،،.
هكذا تكتمل الصورة وتتضح رموز المعادلة ،،وتذكر انك لم تختار
لنفسك البداية ولم ترسم حدود النهاية ،، وأنك

ستفاجئ بمنعطف لم تكن تتوقعه ،وعند هذا المنعطف سينتهي كل شئ ..
وتنتهي أنت ذاتك ،،وتبقى الإجابة معلّقة ما بين الأرض والفضاء ،،حتى
يحكم ويفصل بشأنها القاضي وينفّذ بها حكم القضاء.

لم نفترق لكننا لن نلتقي أبدًا قصّة قصيرة

.

:المنعطف

إنه فعلًا كان أو كاد أن يكون منعطفًا خطيرًا في حياتها لكنّها تداركت الأمر في الوقت المناسب، لم تكن (نوال) تريد يومًا ما أن تكون مثل باقي قريناتها أو أقرانها... كانت تحبّ دومًا أن تغرّد خارج السرب وتفكّر خارج الصندوق... اعترفت (نوال) لنفسها مرارًا وتكرارًا أنها بهذه الأسلوب ربما خسرت وستخسر الكثيرين من .الصديقات والأصدقاء

ولكن شيئًا ما سيّئ بداخلها كان ينمو ويكبر مع الوقت يحذرها ينذرها... يرهبها ويرغبّها، يُضيئ لها طريقًا كانت تشعر أنها مشتتة من قبل لكن بدون حذر ولا حتَّى أدنى حذر، ولما لا وهي الَّتي طالما رأتهم حولها يتساقطون ورقة تلو ورقة من دفتر عمرها كأوراق شجرة الخريف، وتتساقط معهم كل الأفكار، بل قل كل الترهات .وكل السخافات والخزعبلات الخاطئة الَّتي دائمًا ما كانت تصدّقها وتؤمن بها

وأقول تؤمن، لأن الإيمان هو تسليم بدون دليل، بدون منطق، بدون أي شيء، مجرّد التسليم بفكرة والانقياد لها هكذا لمجرّد شعور أو إحساس يبدو للوهلة الأولى قويًا يقينيّا لكنه سرعان ما يتهاوى ساقطًا في محيط الوهم تبتلعه حيتان الخداع وتمسك به حتَّى يغرق مختنقًا بين مخالب الشر لافظًا آخر أنفاسه، إنه ما من دليل يقودها للحقيقة الكاملة. فأنّى لها أن تسلم بها وهي غير موجودة أنّى ها!!!؟ إنها بذلك كمن يرى

الشّمس في ليل بهيم، أو كمن ينتظر الولد من رحم عقيم، ولأنها لم تكن تريد أن تكون هذا وذاك. جلست في إحدى ليالي الشّتاء الباردة وصوت قطرات المطر كانت كساعي البريد الَّذي يدقّ على شبّاك غرفتها، فجلست في رهبة متبتل وخشوع مبتهل وجل، ليلة ساد الخشوع بها ركن في غرفتها وتضرع السكون في صمته راجيًا قلمها أن ينطق بما في قلبها وما يدور في خلدها.

تتلألأ النّجوم بما فيها وليس بما نعطيها... وأنت النّجم الَّذي لا تشبهه كل النّجوم.. هكذا بدأت أول سطر في رسالتها... لم تدري كيف تبدأ؟ كيف تكتب؟ كيف تشرح؟ ... أو ماذا تقول؟ وإن وجدت ما ستقوله.. كيف ومتى تقوله؟؟ الآن تبدأ.. لا، لا.. ما زال الوقت مبكرًا.. ليس بعد... ثمّ فجأة وبإصرار... لا... بل الآن... والآن أبدأ... ثمّ أمسك القلم بيدها! وانسابت الحروف وتلتها الكلمات وانزلقت على شفتيها العطشى لكل ما فيه... وكل ما به... وجرت عذوبة الكلمات الشفافة تروي جفاف قلبها وتسقيه فينبت به نبات أخضر من الحنان والطمأنينة والسّعادة... أنت نعم أنت، أنت من أبحث عنه... ترى لماذا تأخرت كل هذه السنوات، أين أتيت؟ ولماذا تأتي الآن بالذات؟! وتساءلت بحزن يقطر من القلم ويسيل على وجه الرّسالة ليغرقها في أنين من الدموع...

هل كنا على ميعاد؟ وإذا كنا كذلك؟ هل من الإنصاف أن تأتي الآن؟ استنشقت عبير الكلمات الَّتي ملأ عطرها أرجاء الورقة الَّتي ما زال أكثر من نصفها كبياض الثلج الَّذي ينتظر حرارة كلماتها ودفء عباراتها ليذوب من لهفة اللقاء.! واحتضنتها الكلمات! وفي عناق الحرف مع الحرف قالت له: إنّي أهرب من نفسي إليك. فاحتوياني.. خذني بين ذراعيك وضمني إليك... ودعني أتأمّل عينيك...

لكنني ماذا أرى؟ فدنا لها طيفيه من فوق السطور وهو يهمس في أذنها ماذا ترين؟ فاقتربت برهة.. ثمّ ابتعدت لخطوتين وهي ما زالت تتأمل عينيه في خشوع مستكين مرتجف! ثمّ أجابته وهي تتمتم بشفاه مرتعشة متألمة: أرى في عينيك الغدر... أرى أنهما تلوّحان لي من بعيد وكأنهما تودعاني أو ستفعلان ذلك بعد فترة... ثمّ شردت إلى البعيد القريب! وهي تهمس لنفسها بألم مرتعد: إذن وغدًا قريبًا ربما يتركني أو هو سيفعل، حتمًا سيفعل.. لن يستمرّ في حبه لي..

غدًا أو بعد غد سيخذلني... سيقتلني بجفائه... سيملّني... نعم أخبرتني عيناه بذلك وحديث العين يصدق دائمًا... اشتممت في نظراتهما رائحة البرود تلوّح لي من بعيد بيد ثلجية تختبئ وراء ستار من العاطفة الدافئة... وساعتها لن أجده ثمّ بكت وأجهشت بالبكاء طويلًا... وانتزعت يدها من يده بقسوة وبسرعة متوترة وهي تقول له بحزم: لا، لن أنتظر حتَّى تفعلها فلأتركك أنا... لن أدعك تكسرني تخذلني لا، لا لن أدعك أبدًا... وبصوت متهدج بالبكاء ونبرات متقطعة تمزقها سكّين الحزن الباردة وهي تقول لن أدعك تخذلني... بل لن أصدقك... أنا أريد الحبيب الحنون... أتفهم؟ الحنون!

أريده هو، هو صاحب القلب الكبير، صاحب اليد الحانية الَّتي لا تقترب مني إلا لتمسح على شعري كما اعتدت أن أمسح على شعر قطّتي الصغيرة بحنان...

يد لا تمتد إلا للعطاء... للحنان... فقط لتربت على كتفي وعلى ظهري بأنامل حانية... أنامل تتحسّس خصلات شعري الطويل المنسدلة على أكتافي وتحركه مع الهواء يمينًا ويسارًا... يد تغلف قلبي بدفئها وتتحسّسه دائمًا لتطمئن عليه... لترعاه... لتغذّيه بالحبّ والشوق كطفل صغير... أريد هذا الَّذي يرعى قلبي... يدفئه... يحنو عليه... يحتضنه... وعندها... ثمّ صمتت... فأمسك هو بيدها ليعيدها إلى صدره مرّة أخرى وهو يهمس في أذنها الصغيرة ويتحسس أصابعها بلمسات طويلة بطيئة حانية: ومن قال لك إني لست كذلك، من أخبرك أني لست هذا الَّذي تبحثين عنه... تأملته في خشوع وبصوت مرتجف وهي تقول بنبرة متشككة: أحتاج لمن يمسك بيدي ويضمني إليه ويقول لي كفاكِ حزنًا... فحزنك يتعبني... آه، قالتها وهي تئن من ألم روحها المتمزقة كقطعة قماش اهترأت على مرّ الزمن...

آه ثمّ آه، لقد تخطّى الوجع في قلبي كل الحدود... اقترب منها أكثر حتَّى أصبحت أنفاسه ممتزجة بأنفاسها وحتَّى سمعت صفير أنفاسه يثقب أذنها ويخترقها متسللًا أو محاولًا التسلل لقلبها... لكنها نظرت وهي تحدق طويلًا في عينيه وهي تقول وكأنها تخبره بما لم يتوقعه منها: لكن الغدر ذكر... الكذب ذكر... الغباء ذكر... فقال وهو يبتسم بغرور: لكن الخديعة أنثى... البشاعة أنثى... والحماقة أيضًا أنثى... فبادلته النظرة بعناد وبثبات وإصرار وإقرار قالت: وأنا أدركت أن القبح ذكر... فرد محاولًا تهدئتها وبحنان ممزوج بلوعة، قال: لكني أرى أن الطبيعة أنثى...

والسّعادة أنثى... فشردت بخيالها بعيدًا وقد سقط القلم بيدها بالتدريج كحبات مطر تهبط على استحياء من السّماء وقامت بخطوات بطيئة وهي تتجول في غرفتها وتحوم حول الورقة، وهي تنظر للقلم بتوجس اختلط بالعناد، ومن ثمّ رنت في أذنها كلمات إحداهن وهي تقول لها ذات مساء وبضحكات تحمل من الاستهزاء أكثر ما تحمل من الثقة والَّتيقّن: أتظنين أنك ستجدين السّعادة الَّتي تحلمين بها مع رجل... أنت واهمة... أنك تنبشين في الوهم وتفتشين في السراب... أن هؤلاء الرجال يا عزيزتي قلوبهم صناديق مقفلة... لا يفتحها إلا هم ووقتما يريدون... ثمّ اقتربت منها وبهمس كفحيح الأفعى قائلة: وحدهم إنهم وحدهم فقط من يفتحون قلوبهم وأسرارهم وقتما شاءوا ويغلقونها كيفما ووقتما يريدون... ثمّ اعتدلت في جلستها على الأريكة وبلا مبالاة... هكذا هم دائمًا...

وما على المرأة إلا التّحمل والصبر... فقد يرجع لها رجلها يومًا سكرانًا بخمر حبّ جديد أو متعربدا في شهوة مثيرة... أو غارقًا مع متعة جديدة... ونظرت إليها وكأنها تواسي حالها أكثر مما تواسيها وأسندت رأسها للخلف وهي تتنهد: آه، لكن الأنثى لا بد أن تتحمّل... نعم، تتحمل وتحمله بين ذراعيها كالطفل الرضيع... ولتصبر على ركلات أقدامه في وجهها... أو لكمات يوزعها شمالًا ويمينًا بيديه الثائرتين مطالبًا

بغذائه أو عندما يحلّ موعد إرضاعه... لا بأس، لا بأس فهكذا هو الطفل الصغير دائمًا ما يفعل عندما يتذمر أو يغضب... وما على الأمّ إلا تلبية رغبات طفلها... حتَّى لو دلّلته... كتمت هي غيظها وحنقها وهي تبادلها النظرات قائلة: وهي أين هي في حياته؟ أنا لا أريد مثل، مثل... هذا الرّجل المتبجح.. أنا أريد... وقبل أن تكمل أسكتتها وقاطعتها بإصرار ونبرة متحدية يائسة قائلة: لن تجديه يا عزيزتي!

لن تجديه... هو فقط من يريد... ويحقّق ما يريده... إن لم يكن بالترغيب فهو إذن بالترهيب... وبهمهمة لاذعة وبتبرة تقطر بالحسرة وبالمرارة واليأس: قالت لها: إن المعركة دائمًا تنتهي لصالحه أو قولي بالأحرى لمصلحته... ومصلحته الشخصيّة... فهبت هي واقفة وباعتراض شديد وهي تردّد كلماتها الَّتي سكبت طعم الحنظل في فمها وبمرارة الصبّار وهي ما زالت تردّد... (مصلحته... صالحه هو... الترهيب)... وصرخ داخلها بهلع مريب... ثمّ عادت مسرعة للورقة وأمسكت القلم وبطلقات نارية من ومضات الرعد، الَّذي أطل في سماء غضبها وسال قلمها بسيل أمطار متذمّرة وتداعت الحروف ثائرة من قلمها: لن يكون ذلك أبدًا... لن يكون... ومهما يكن من أمر... لن أيأس إنه موجود... موجود... موجود... إنه يسكن داخل روحي أراه وأتنفسه... أشعر بوجوده، بحرارة أنفاسه تلذعني...

قد لا يكون مثلكم... قد يختبئ بينكم... قد يظهر في نواياكم الطيبة، ثمّ يعود ليندثر بين ثنايا نواياكم الخبيثة! قد ترونه كفلق الصبح المشرق عندما تنفرج أساريركم فيخرج بشعاعة ليضيء أرواحكم بصفاء... وضياء ونقاء... قد يختفي عندما يرتطم بصخرة جشعكم ويغرق بحر المادة الَّذي سقطتم به، ثمّ لا يلبث أن يعود مرة أخرى لينبعث من جديد عندما تصيح صيحة حق بداخل صدوركم لتنهاكم عن الجشع، عندها تنهمر دموع الضمير المشبع بآلام الذنوب وحسرة الندم فيظهر هو وينبلج عنه صبح منير يداوي آلامكم ويربت بيدٍ من حنان على الصدور ليشفي ما بها ويُهدّئ من روعها فتنبت بها بذور الأمل من جديد... ثمّ عاد القلم ليسقط من يدها لتعيد كرّة اليأس نفسها من جديد وترتدي ثوبها القاتم لتغيم علي وجهها سحابة من الشحوب والتّوتر والحزن، وقد تذكرت كلمات ذاك الرّجل الأربعيني الَّذي يسكن خلفهم في البناية الَّتي تلاصق بنايتهم وقالت وهي تتنهد بصوت متهدج مكلوم بوجع مكتوم وأسندت ظهرها إلى الكرسي للخلف وهي تقول: كم هو رجل جاف...

متعجرف... بارد الطباع... لم أرَ مثل طباعه اللّئيمة في حياتي... وبحسرة متألمة قالت (كنت أحسبه على غير ما لاقيت منه؟! كان يتعمد إيذاء مشاعري كلما رآني يبتسم بغرور متبجح وثقة غبية وقحة يقترب مني ليلقي عليّ سلامه الكريه... آه... كنت أشعر أن السّم يسري في عروقي كلّما رأيته... يا له من رجل مستهتر، أعزب متسكّع في هذه الحياة ولا هم له سوى مجالسة النّساء واللّعب بقلوبهن... وبمرارة قالتها: ثمّ ماذا؟ ... يأتي ليتقدم لخطبتي!!! ليعلن توبته علي يداي...؟ ثمّ دقت بيدها على الطاولة أمامها وكأنها تدق ناقوس الخطر وهي تقول (كاذب... كاذب... لست هو... أنت لست هو... ثمّ تضحك بسخرية ممزوجة بمرارة قائلة: وكلهم صدقوا توبته

المزعومة.. صدقوا أنه يريد أن يتطهر من ذنوبه أمامي.. وأنه يعترف بها فوق كرسي الاعتراف ليأخذ مني صك الغفران! يا لهم من حمقى!

وبتساؤل مشبع باليقين قالت لنفسها: أم أنهم كاذبون مثله. نعم، نعم هم مثله... يعيشون على الخداع... يحترمون الكذب ويقدسونه دون أن يشعروا بل دون وعي منهم... هيهه وابتسمت بغيظ وهي تتذكر أنه أراد أن ينال منها عندما رفضته... فلم يستطع... ليتهم يعلمون... ليتهم يفهمون... قد اقترب منها ذات صباح وهي تعبر الشارع وتتلفت يمينًا وشمالًا لتتقي شر السيارات، وإذا بريح ثقيلة هبت من جانبها، وإذا به يلقي بظله الباهت المليء بالتجاعيد الَّتي حفرتها ذنوبه وأخطاؤه على وجه ظلّه المقيت وهو يلقي عليها التحية، ثمّ يقترب كشاحنة مسرعة تريد أن تسحقها قبل تفتدي نفسها وروحها مباغتًا إياها بسؤاله (هل وجدته؟) فالتفتت إليه باحثة عن معنى كلماته بين عينيه فلم تجد سوى دخانًا من الشماتة والتّشفي ينبعث من نظراته... ثمّ سألته مستوضحة... وجدت ماذا؟ فأجابها بلهجة لا تخلوا من السخرية والتّهكم الممزوجة بروح الدعابة والاستخفاف قائلًا: (المنتظر)، ألم يأتي بعد ليأخذ بيدك إلى حيث تريدين.. وإلى المكان الَّذي به تحلمين؟ وقالت بضحكات متقطعة عالية علا دويها في أذنها كصواعق ليلة شتاء ثلجية قائلًا: لكن يا لطول ما تنتظرين! ثمّ اقترب منها هامسًا بتساؤل يقطر باستخفاف (هل تراه سيأتي حقًا)؟ لم تلتفت إليه بل إنها حتَّى لم تسمعه... تركته ومضت...

مضت وهي غارقة في هذا الطّيف الَّذي ملكها وامتلكها... حتَّى لم تعُد ترى سواه... حتَّى عشقت ذاك الطّيف الَّذي أصبحت تراه أينما توجهت ووجهّت، عشقت طيفه ذابت به... عاشت بداخله... سكنته وسكنها... وامتزج الواقع بالخيال فأصبح حقيقة لا تنكر؟! وأصبح الخيال غارق يسبح في واقع، واقع لا محال... فلم تدرك أيهما تصدق، أيهما تصادق... كلاهما يتلقفها لتغوص كرة أفكارها وأحلامها بل ويقينها بين كلاهما لا تكاد تلتقطها يد أي منهما حتَّى تطير بعيدًا في سماء اليد الأخرى... ولم تعُد تدري! هل هي تنظر اللّحظة الَّتي ستعذب بها مثل غيرها أو أنها ستظل تنظر وتنتظر.. تتوجس وتتهيب وقوع تلك اللّحظة دون أن تحدث وقبل أن تحدث...! إن عذاب الانتظار أبشع ألف مرّة من العذاب نفسه... فهل يخرج مارد هذا الطّيف من بحر الهوى ليقهرها بحبّه وعطفه وقوّته الحانية وحنانه القوي... لتستكين بين ذراعيه ولتهدأ روحها على شواطئ يديه الَّتي تحيطها بسياج رجولته فتشرب من كأس عذوبته راضية عن طيب خاطر.

جلست وكانت يداها ترجف، ثمّ جرت الكلمات من قلمها وقد سحبت أنفاسها اللاّهثة وكأنّما هي في سباق طويل مع الوقت... الزمن... الساعة... الأيّام والشهور والسنون... الكل يقول لها هيا لا تتردّدي أسرعي في اتخاذ قراراتك... ولا تؤخري أو تؤجّلي خطواتك... هيا قرّري مصيرك الآن... والآن تحديدًا.. كفاك انتظارًا... فإما أن يكون مصيرك صائر إلى ملاك أو إلى هلاك...

لم ترد يومًا أن تنزل إلى سوق الجواري... لم تشأ يومًا ما أن تبيع حلمها لمن يدفع الثمن الأكثر... لن تهدي هذا الطيف إلى من يلبس القناع الزائف ثمّ لا يلبث أن يتحول إلى كائن أحمق... غريب عنها... قريب منها لكنه بعيد عنها!! وطوت صفحة الورقة كطي السجل... وقفزت أوراقها بسرعة أرنب بريّ يخشى الصياد أن يلمحه أو يلتفت إليه واختفت بين طيّات المظروف الَّذي كان بالرّغم من صغر حجمه بدا أمام عينها كعالم واسع مهيب!

مليء بكل ما تحتمله النفس وما لا تحتمله... وما تسعه كل القلوب وما لا تسعه! وجدت نفسها فجأة أمام صندوق البريد... ولم تدري كيف قفزت كل درجات سلم البناية..

مع أن مصعد البناية كان معطلًا إلاّ أنها هبطت إلى أرض الشارع بسرعة البرق الَّتي تسبق كل المصاعد! كيف حدث ذلك لم تدري؟! بل تعد تعقل أو تسمع شيًا ممكنًا يدور حولها... ولم ترَ أمام عينها سوى وميض تلك الرّسالة الصغيرة الَّذي يلمع بريق حد السيف الجديد المتعطش للبتر والقطع! نعم بتر كل الأكاذيب... وقطع الشك باليقين... لحظة حاسمة... وسط حقيقة معتمة في سماء غائمة...

لحظة تشق غبار كل صمت وتسمع كل صوت... ستصل رسالتها... حتمًا ستصل... وسيستلمها من هو أحقّ بها... إنه يعلم أنّها ستصله يومًا ما! هو بانتظارها ولا بد أنه مستلمها... لن تصدق أقاويلهم المحبطة... لن تبيع الصدق بالأكاذيب... ستقوم مهما سقطت وستعلو مهما هبطت... يكذبون الصدق عندما يصدق الجميع الكذب أما هي فلا... فلكل جرح دواؤه ولكل طير هواؤه. إنه المنعطف، الطريق الدائري والمتاهة الَّتي من المستحيل أن تختفي وتذوب كقطعة السكر كوب الماء بين ثناياها، إنه لا بد أن يكون شيئًا لم يوجد بعد.